



صراع الأنساق الثقافية تجاه الأنثى قراءة في رواية (صوت خافت جداً) لسعد سعيد

سامان جليل إبراهيم محمد

جامعة كرميان ، كلية اللغات والعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية

الخلاصة

يحاول هذا البحث دراسة الأنساق الثقافية التي طالما امتازت بالسلطة والمركزية تجاه الأنثى في ضوء دائرة النظام الاجتماعي ، ومن هنا تطرح رواية " صوت خافت جداً لسعد سعيد " مجموعة من الأنساق الثقافية عبر مضامينها المتكئة على تقنيات سردية حدائوية الدلالة ، وفي ضوء هذا الطرح النقدي اشتغلت الدراسة على تفكيك الأنماط والمسلمات الثابتة التي رُسمت للأنثى ، وقد تضمن البحث تمهيداً ، وأربعة مباحث ، وخاتمة ، ووضّح سبب اختيار هذه الرواية موضوعاً للبحث ، ووقف التمهيد على " توصيف الرواية " ، أما المبحث الأول فقد تناولت فيه " سلطة أيديولوجية المجتمع تجاه الأنثى " ، وتطرق المبحث الثاني إلى " تمثيلات العنف تجاه الأنثى " ، وعرضت في المبحث الثالث لـ " نسق الفقر " ، جاعلاً ختام ذلك " نسق الحب " وهو ما تناوله المبحث الرابع ، وتجدر الإشارة إلى أنني قد اعتمدت في دراستي لهذا البحث على القراءة النقدية النصية من المنظور الثقافي ، كاشفاً تلك الأنساق المضمرّة والمسكوت عنها تحت قشرة النصّ تجاه الأنثى.

Article Info

Received: August , 2019

Revised: August , 2019

Accepted: August , 2019

Keywords

الصراع ، الأنثى ، العنف ، المركز ، الذات ، المسلمات ، التهميش ، التفكيك

Corresponding Author

saman.jalil@garmian.edu.krd

المقدمة

ثانياً : إنّ المتن المشهدي للرواية يتحدث عن الأنثى الساخطة تجاه المجتمع الذي أُنعمها وأرهبها ، فضلاً عن البوح بمكامنها الداخلية وإفصاح عنها .

ثالثاً : تحاول الرواية تفكيك الخطاب القائم على ثنائية المركز والهامش وتحطيم الصورة النمطية التي رسمت للأنثى .

وبما أن اغلب الروايات تصور أحداث المجتمع بجميع تفاصيله ويتفاعل مع انشغالاته الإنسانية ، اعتمدنا من خلال بحثنا على تطبيق الآليات النقدية الثقافية وإجراءها التحليلية التي تتعامل مع حقيقة البحث في الماورائية والمهمش والصراع ، أي الغوص في المحمولات الثقافية المعلنة : بغية الوصول إلى مضمرات فضاء النص السردى .

وقد توزعت مفاصل البحث على أربعة مباحث ، وسيقت بتمهيد عُني بتقديم " توصيف الرواية " ، وتناول المبحث الأول " سلطة

إنّ الحديث عن المرأة عبر الأنساق الثقافية في النظام الاجتماعي يُعدُّ أحد أهم أسئلة المتن الحكائي للرواية المعاصرة العراقية . لا سيّما أنّ الأنثى باتت ايقونة نهوضية مهمة . فلا بُدّ من الوقوف على تصوراتها وأفكارها التي تضعها في مكانها المستحق ؛ ولهذا لجأ السرد العراقي إلى طرح تلك الأنساق ومعالجتها التي تعاني منها الأنثى بحكم مجموعة من الثوابت والمسلمات مثل الذكورية والاجتماعية والسلطوية التي سلبت الذات الأنثوية وهُمشتها .

ومن هذا المنطلق جاء سبب اختيار دراستنا لرواية " صوت خافت جداً ، لسعد سعيد " ولأسباب الآتية :

أولاً : عدّها واحدة من الروايات التي تشغل على واقع الأنثى التي تصارع الأنساق الثقافية نظراً لهيمنتها المتأرجحة بين الخضوع والنمطية

الرواية أسئلة كثيرة خلف المنعطفات الكتابية لمن النص أمام القارئ للإجابة عليها.

المبحث الأول : سلطة المجتمع تجاه الأنثى .

إنَّ البحث في سلطة المجتمع داخل الخطاب السردي محاولة نقدية تستدعي النظر إلى الرواية بوصفها خطاباً ، وهذا الأمر من دواعي تشكُّل الحس النقدي في فضاء الرواية ، وعلى هذا الأساس نحاول تفكيك منظومة السارد في ضوء الخطاب ، أي كشف الأنساق المضمرمة والمعلنة التي تهيم على نصه السردي.

ومن هنا فإن سلطة المجتمع سلطة قائمة على أساس منظومة اجتماعية تجعل الأفراد برضخون لها على وفق حزمة من الالتزامات التي تمثل حدوداً لتلك السلطة المنضوي تحتها مجموعة من الأفكار والرؤى في مختلف شؤون الحياة⁽¹⁾ ، أي أنَّها القوة والقدرة على التحكم بالآخرين ومجريات الأحداث بأساليب عدة تتراوح بين الإقناع والإكراه⁽²⁾ ، ولهذا فسلطة المجتمع يتمثلاتها تحتل الموقع المركزي في بناء النظام الاجتماعي ، وتحتكر السلطة والنفوذ والتصرف في جميع حياة الأفراد ومستقبلهم ، وهذا النسق ما زال قائماً تعاني منه المجتمعات البشرية على نحو عام والأنثى على نحو خاص على اختلاف ثقافتها كل منهم وتجاربه وظروفه ، لذلك جاءت بنية النص لتفصح لنا هذا النسق تجاه الأنثى " كان يتابعها طوال الوقت وهي تتحدث واقفة أمامه ، ولكنه قال هذه المرة متسانلاً :

- هناك أين ؟

فابتسمت وهي ترد :

- نثيم طبعاً

- أها فهمت .. ولكنك قلت طالبة جامعية ! .. إذاً هي حققت مالم تستطيع تحقيقه ، ولكن كان هذا بفضلك بكل تأكيد.

فنظرت إليه مستغربة وقالت :

- لم أفهم قصدك

- قصدت أنها حققت المعدل الذي أهّلها لدخول الكلية

فقالت وعلامات الاستغراب لا تفارق ملامحها :

- ومن أخبرك بأنني لم أحققه ؟

- أنت!

- أنا لم أقل ذلك ، بل الحقيقة هي أن معدلي كان أعلى من معدلها

فانتقلت علامات الاستغراب إلى وجهه هذه المرة وقال :

- فليمْ لَمْ تكلمي دراستك الجامعية إذاً ؟ !

- لأن أهلي رفضوا ذلك

- ولكن لِمَ رفضوا ؟ !

- ليتني أعرف .. لعله ... خوفهم على سمعتهم كما أعتقد

- سمعتهم ؟ !

- زادت ابتسامتها مرارة وهي تقول بصوت خفيض :

- ألا تعرف بأن الطالبات الجامعات متهومات بشرفهن هناك ؟

- هناك أين ؟ !

المجتمع تجاه الأنثى " ، أمّا المبحث الثاني فقد تمثل بـ " تمثلات العنف تجاه الأنثى " ، وجاء المبحث الثالث موسوماً بـ " نسق الفقر " ، وتتبع في المبحث الرابع " نسق الحب " .

وأخيراً انتهى البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصلت إليها ، وأعقبنا ذلك بثبت للهوامش والمصادر والمراجع المعتمدة .

التمهيد :

توصيف الرواية

تُعَدُّ رواية " صوت خافت جداً " لسعد سعيد ، الصادرة عن دار شهريار ، البصرة ، العراق ، بطبعتها الأولى للعام 2019م ، من الروايات التي تعالج مضامين أنثوية مستتلة في ظل دائرة المجتمع ، وبهذا تشكل الأنثى محوراً أساسياً في الرواية وهي ليست من مخيلة الروائي وإنما مجتزأة من بيئته المعيشة وواقعه اليومي ، ومن هنا تدور أحداث الرواية عن الصراعات التي تعاني منها المرأة كالتطبيقية والتفاوت الاجتماعي والسلطوية بشقيها : المجتمعي والذكوري ، وهذا ما مثلته الشخصيات الأنثوية في فضاء الرواية كشخصية " سفانة " التي تعاني الفقر والعوز ، فضلاً عن معاناتها تجاه أختها " سلوى " التي تجلب المال مقابل جسدها الفاتن ، وكل هذا لا يمنع شخصيات أنثوية أخرى كانت أكثر تفعلاً وألماً كشخصية " فضيلة " التي ذبحها أخوها بدعوى الشرف.

كل هذه المعاناة الأنثوية يسردها الراوي العليم " سفانة " برسالة مرسلة إلى الطبيب " فارس " الذي أحبها وتعرف عليها مع صديقه " عماد " في شارع المنتهي ، وعملت فيما بعد مع الطبيب كسكرتيرة في عيادته الخاصة بعد أن غلبت عليها حاجة العيش وتركت دراستها ومن ثمّ بلدها العراق ، وهكذا تستمر الشخصية الأنثوية " سفانة " لتسرد لنا الأوجاع والقصص الأنثوية بتسلسل قصصي لشخصيات أنثوية مختلفة في المركزيات والوظائف وما تلاقين من ويلات المجتمع والسلطة والعيش والتميش والتحرش الجسدي.

ومما لا شك فيه أنّ السرد الذكوري المنادي بايقونته الخطابية المناصر للمرأة يكون ذا متعة في المبنى السردي ، لا سيّما أنه يترجم معاناتها تحت دائرة ثقافية خاضعة للمركز الذكوري الممارس للقوة ضمن النظام الاجتماعي الموروث ، وبهذا نرى في فضاء الرواية ثمة توق لصوت الأنثى في فضاء مفتوح ، وثمة إدانة للسلطات والمراكز والمسلمات الثابتة وما تحدثها من تدهور ذاتي يتمثل في الاستحواذ على الأنثى .

ومن هنا فإن رواية " صوت خافت جداً " تصب في البوتقة الاجتماعية ، ولاسيّما المرأة العراقية وواقعها اليومي في مشهد يلقي الكاتب الضوء على عمق معاناتها ويصف عالمها ضمن واقع جغرافي بغدادي ، هذا الواقع الذي عاشه الكاتب بنفسه وشاهد يوميات المرأة العراقية النائرة بالغضب تجاه استلاب حقوقها ، لذلك ترك فضاء

ولكنها تجاهلت تساؤله الأخير" (iii)

باعتماد الأنتى قوة مهيمنة أو سلطة تجاهها ، التجأت للبحث عن البديل للذات الأنتوية " تقول إنها تكون بخير في النهار ما دامت الشوارع مفتوحة " ، وهذه البدائل التي اجتاحها لتفك ذاتها من قبضة النظام الأسري " قالت إن أقصى ما كان يمكن أن يحدث هو أن يضربوها ، وأن يمنعوها من الخروج بعدها " والتي تشكل في مخيّلها لتمثل صورة مخيفة " هي خافت من أهلها ، فهربت " ، ومن هنا يصبح نظام المجتمع مؤثراً مباشراً في إحاسيس الأنتى ولاسيما أن معاناتها تصطدم بوسط أسري تمارس فيه العادات والتقاليد سلطة وافكاراً مترسخة مورثة ، وإن مثل هذه " الأفكار لسلطة المجتمع والتي يرددها كثيرون وبدرجات مختلفة أصبحت مدركات ونظام توقعات للرجل يستخدمه للنظر إلى المرأة ، والعكس بالنسبة للمرأة ، وتسمى هذه الأفكار عند علماء النفس الاجتماعي بالمدرجات النمطية " (vi)

تتخذ سلطة المجتمع تمثالات متعددة في فضاء روايتنا ، ولا سيّما السلطة الأسرية التي تشكل بنية اجتماعية ونفسية تطبع العائلة وتكون علاقة هرمية تراتبية تقوم على التسلط والخضوع ، هي القوة التي يمارسها الأب أو الأم أو الأخ والأخت الكبيرين على بقية أفراد الأسرة (vii) وتتجلى هذه السلطة بوضوح في قول السارد : " قررت أن أنزع الحجاب نهائياً ، فلا حاجة لي إلى حجاب لا يستطيع أن يمنعني من ارتكاب ما لا يجوز ، ويعجز عن إبعاد شرور الآخرين عني .. قررت بغض النظر عن الثمن الذي سأدفعه من أجل ذلك ، وقد تحملت الكثير من أبي وإخواني ، ولكنني صمدت ... طبعاً سأخوض مغامرتي وفق مفهومي الخاص للشرف ، وهل ظننت أنني أقصد شيئاً آخر ؟ ! .. هيا ، كفاك نعيماً ، لقد قررت وأسأخضها حتى النهاية " (viii)

تعلن الشخصية الأنتوية " سفانة " في فضاء هذا المشهد عصيانها وثورتها على السلطة الأسرية التي تترجح الأنتى تحت سطوتها ، إذ نلاحظ جملة " وقد تحملت الكثير من أبي وإخواني " ، والتي تدل دلالة واضحة على حالة الخضوع والخنوع التي عاشتها الأنتى ، ومن هنا حاول السارد أن يضمّر هذه الصورة السردية للسلطة الأسرية أنساقاً تشير بدلالاتها إلى تلك المخزونات الثقافية في اللاشعور الجمعي تاريخياً ، والتمهيش الذي تتعرض له بسبب خرقها لبعض عادات وتقاليد المجتمع التي مازالت حاضرة على الرغم من التقدم المدني للمجتمع ، ومسألة المجتمع السلطوي والبحث في مغاليقه من أجل إدانته يفسح المجال للذات الأنتوية لإطلاق صوتها وحضورها في دائرة التعبير والاختيار الذاتي لنفسها أمام قوة المجتمع ونظامه الرسمي التي أسماها " إيليوستودت " بـ " القوة الرسمية المتوقعة والمشروعة أو هي ذلك الاستخدام المشروع لقوة مؤسسات المجتمع " (ix)

ولعل مما نلاحظ في فضاء الرواية أنّ هناك سلطات أسرية أحر كانت حاضرة في لقطاتها المشهدية ، ألا وهي تلك التي عمادها سلطة الأخ تجاه الأنتى ، هذه السلطة التي كانت تنتجها التراتبية الأبوية المسماة في العرف الاجتماعي بتبادل الأدوار (x) نتيجة ظروف تنتقل السلطة الأبوية العامة إلى الابن وجعله مركز الإدارة وصاحب النفوذ المطلق في القرارات لتنفيذها تجاه الآخرين ، ولاسيّما تعاطيه مع ما تعارف على تسميته في

هنا يبرز السارد الصورة السردية التي تظهر فيها سلطة المجتمع تجاه الأنتى " سفانة " المقهورة والمتضررة من مجتمع محمل بعبادات وتقاليد متوارثة من المركزية السلطوية التي قامت على مبدأ التفاضل بين الجنسين مستندة في دعواها إلى قيم اجتماعية ، ولهذا ترجمت الشخصية الأنتوية " سفانة " معاناتها تجاه تلك السلطة بفاعلية الحوار في فضاء الرواية ، لذلك حاول السارد على وفق النسق المعلن أن يعري ويفضح الوجه الآخر لها ، فاختار مفردات سردية تشير إلى دلالات نسقية تعبر عن مدى قوة تلك السلطة وما تركتها من آثار سلبية لدى الأنتى " فلم لم تكلمي دراستك الجامعية إذاً ؟ ! : لأن أهلي رفضوا ذلك ، خوفهم على سمعهم ، بأن الطالبات الجامعات مهمات بشرفين هناك " ، ولهذا يربط تلك القوة والتسلط بـ " الشرف " ، وهذا ما جعل المتلقي يتساءل بـ " هناك أين ؟ " ، هنا نلاحظ أنّ كل هذه الدلالات تبرز كيفية تمهيش الأنتى عبر المؤسسات الاجتماعية التي تقول بـ : " تفضيل الذكورة على الأنوثة لا يعود إلى الطبيعة ، وإنما إلى الثقافة والقيم الاجتماعية " (iv)

تنحى مشاهد كثيرة في متن الرواية المنحى نفسه ، لا سيّما أنّ الرواية تؤدي دوراً بالغ الأهمية في سلطة المجتمع تجاه الأنتى ، لذلك يشكل عنصر الأنتى في هذه الرواية تمظهراً فنياً يسيطر على معظم السرد فيها ، ويترك الكاتب الأنتى تتحدث عن قضيتها الاجتماعية بنفسها عبر أسلوب السرد الذاتي " إن جلست حتى لفتت نظري بمظهرها المزري .. بدا لي وجهها لوحة أراد رسامها أن يعبر بها عن البؤس ، بل بدت هي البؤس نفسه ، ولذلك أثارت طوفاناً من الحزن في داخلي .

بقيت أراقبها عن بعد وهي مشغولة بأفكارها ... بقيت أراقب وهي غافلة عني ، حتى نفذ صبري ، لأسألها عمّا بها ... أخبرتني بأنها فرت من بيت أهلها ، ولا تعلم الآن إلى أين تلجأ بعد أن نفذت النقود القليلة التي كانت معها بعد يومين ... تقول إنها تكون بخير في النهار ما دامت الشوارع مفتوحة ولكن مأساها تتكرر حين يحلّ الليل .. فكرت أكثر من مرة بالنوم على الرصيف ، ولكنها لم تجرؤ ... ضحكت حين سألتها وقالت إن الأمر لا يهمها .. أه ، طبعاً سألتها ، فقالت إن صديقها قد صورها عارية بالموبايل ، وإن تلك الصور قد تسربت وانتشرت وكانت فضيحة .. هي خافت من أهلها ، فهربت .

... سألتها إن كانت قد خافت أن يقتلها أهلها ، فضحكت وقالت إن أقصى ما كان يمكن أن يحدث هو أن يضربوها ، وأن يمنعوها من الخروج بعدها " (v)

يتجلى في هذا المقطع السردية النظام الأسري المتوارث من العادات والتقاليد بوضوح ، فالقارئ لهذا المشهد يُدرك تماماً النظام الاجتماعي الخاضع لمجموعة من الثوابت التي لا يمكن للأنتى تجاوزها ، وهذا أن خوف الأنتى من أهلها هي نتيجة لتلك الرؤية الاجتماعية الراسخة ، مما اسفر عن شعور القهر والاعتراب النفسي الناجم عن الانفصال التباعدي إلى درجة تخلي الأنتى عن مكانتها المركزية البيت " فرت من بيت أهلها " ، فمع هذه الرؤى والتصورات المتوارثة التي أصبحت

مجتمعنا بجرائم الشرف (غسل العار) ، وهو يتيح للابن ان يقتل اخته اما رمياً بالرصاص أو ذبحاً ، والأبني المتمثلة بالام او الاخوت تكون راضية عن هذا الفعل من خلال اطلاقها للزغاريد فرحاً وتعبيراً عن ازالة مالحق بهم من العار الذي لحق بها ايزاء ما فعلته الضحية . وكان هذا النسق ذا حضور في فضاء الرواية فجدد السارد بنظمها بصيغة منولوج داخلي في قوله : " أخبريني لِمَ ذبحوها ؟

فشهقت الهواء بأقصى استطاعتها، لعلها تسيطر على رغبها المستمرة بالبقاء، قبل أن تقول:

- غسلًا للعار طبعاً ...

- آه يادكتور ، كانت فضيلة قمة بالنقاء .. كانت فضيلة على شكل فتاة ، ولذلك أحببتها جداً ، وآه لو تدري كم بكيها يوم سمعت بذبحها .. ذبحها الحقيق .

- من ذبحها ؟

- أخوها الساقط .. النذل.

مرة أخرى لم يعرف ما يجدر به قوله ، فيما بانث ابتسامه سخريه ضعيفة على شفيتها قبل أن تكمل :

- كان الفتى الأسوأ سمعة في المنطقة ، وكانت هي تنكر أخوته أمامي لأنها تخجل منه .. الكارثة هي أن سمعته تحسنت كثيراً في المنطقة .. بعد ، أن ذبحها .. بل هو الآن قائد بارز في إحدى المجموعات الدينية المسلحة " (xi)

جسد السارد في هذه اللقطة المشهدية المعاناة السلطوية تجاه الأنثى " فضيلة " من خلال فاعلية نسق " غسل العار " وذلك حين طبق عليها القانون الأبوي ، ولأسبباً أن النسق المذكور يعد من أفسى أنماط السلطة الاجتماعية التي تتعرض لها الأنثى ، لما تمثله من مشاعر النقص في نفسية الشخصية الأنثوية " سفانة " عندما تسرد هذه الحادثة للدكتور فارس ، ولهذا فإن تسليم السلطة بيد الذكر في النظام الأبوي وممارسة قوته ومنحه مركزاً أدى إلى بروز حركة استعادية أعادت الندبة إلى الواقع المنتهك بعد فقدان التوازن ، ومن ثم فإن النظام الاجتماعي الذي يهيمن عليه تلك المرتكزات السلطوية بجميع تمثلاتها حاصرت الأنثى بمجموعة من الاعراف المترسخة عبر امتداد تاريخي يرتبط بالبيئة الصحراوية والقيم والعصبيات القبلية المتقالبية التي تؤثر في بنية الثقافة والمجتمع والشخصية " (xii) .

المبحث الثاني : تمثلات العنف تجاه الأنثى .

يشكل العنف سلوكاً إنسانياً يكمن داخل كل إنسان ولكن بنسب متفاوتة فهو سلوك فعلي أو قولي يستخدم القوة أو يهدد باستخدامها لإلحاق الضرر والأذى بالذات أو بالأشخاص الآخرين ، كما أنه يمس كيان الإنسان ملحقاً به ضرراً مادياً ومعنوياً ، أو يستخدم القوة استخداماً غير مشروع وغير مطابق للقانون من شأنه التأثير على إرادة الشخص (xiii) ، ومن هنا ركز السارد على نسق العنف بكل تمثلاته من خلال شخصياته التي استمدتها من المجتمع العراقي ، ولهذا نلمح نسقين من العنف في فضاء الرواية :

أولاً: نسق العنف المادي

1- نسق العنف الجسدي :

يعد العنف الجسدي جزءاً من السلوكيات العنيفة التي يمارسها الرجل تجاه المرأة ، ويحدث هذا العنف بعدة أشكال مختلفة ، وهدفه هو إيذاء الآخر عن طريق الإصابة الجسمية عند الضحية ، فالعنف الجسدي هو التسبب في الجروح أو الكسور أو الحرق نتيجة الضرب والشد والرفس (xiv) ، ومن هنا يرتبط عنف الجسد في روايتنا ارتباطاً وشيخاً بالعنف الأسري ، والعنف الأسري " هو سلوك قاصر عنيف مؤذ ضد المعتدى عليه ، كأن تكون الزوجة ضحية الزوج ، أو الأبناء ضحايا زوج أمهم أو أبهم مما يتطلب حمايتهم من قبل القانون أو السلطة الرسمية " (xv) ، وجاء هذا النسق في المقطع السردى الآتي في قوله : " حين أنهت سلوى الإعدادية ، حاولوا أن يمنعوها من الجامعة ، ولكنني كنت موجودة هذه المرة ، وكان مركزي أقوى لأنني كنت أساهم بمصروف البيت كلما أتيج لي أن أمل .. في تلك الأيام أرتبهم سفانة أخرى .. سفانة لم يكونوا يعرفونها .. قاتلتهم .. قاتلتهم والله يا دكتور ، وتعرضت إلى الضرب أكثر من مرة ، ولكنني لم أترجع حتى فرضت عليهم الفرد الوحيد من العائلة الذي ارتاد جامعة .. سلوتي .

قال بصدق :

- ياه يا سفانة ، تفاجئيني في كل مرة تحدثيني عن ظروفك .. ولكن ما أروعك ! .

ابتسمت له بحزن وقالت :

- شكراً يا دكتور " (xvi)

نرى في فضاء هذا المشهد حضوراً واضحاً للعنف المادي متمثلاً في الضرب الذي فرض هيمنته الدالة على تلك العادات والتقاليد السلطوية ، وهنا يحاول السارد أن يكشف عن تلك الممارسات الجسدية تجاه الأنثى التي طالبت بحق التعليم وإكمال المسيرة العلمية " قاتلتهم والله يا دكتور ، وتعرضت إلى الضرب أكثر من مرة ، ولكنني لم أترجع حتى فرضت عليهم الفرد الوحيد من العائلة الذي ارتاد جامعة .. سلوتي " ، ولهذا يتأسس هذا المقطع السردى على حقيقة نسق العنف الذي يتعرض له النساء من الإيذاء الجسدي الذي يبلغ حد فقدان الحياة أحياناً ، فهو عنف يمثل انتهاكاً للقيم الثقافية الناتجة عن السلطة الذكورية التي رسخت مركزية الرجل وتعاملت مع الأنثى بدونية ، ومن ثم بقيت الأنثى تعاني " بين قدسية المرأة التي تطرق بعضهم في الحفاظ عليها وبين النظرة الرخيصة لها ، فاعتانت الإهمال والظلم والعنف من مختلف تأويلاته وأشكاله " (xvii) .

2- نسق العنف الجنسي :

يمثل نسق العنف الجنسي " شكلاً من أشكال العنف الذي يتعرض له النساء وهو يعبر عن اعتداء من خلال سلوكيات وتصرفات واضحة مباشرة وضمنية إيحائية تحمل مضموناً جنسياً " (xviii) ، أي : هو الإكراه على التامس الجنسي بالإكراه تجاه الأنثى ويشمل الاغتصاب والتحرش الجنسي أو أي ممارسة

المرتكزات الثقافية ليكشف المضمّر ، ويؤسس ما هو جديد من رؤية ووعي تمكن الأنثى من الانفلات من سطوة المركز الذكوري بتمثلاته التقليدية ، وكل هذا طرحه عن طريق قيمة العنف ضمن دائرة الأنساق الثقافية المتصارعة لتمهيش الأنثى وتعنيفها جنسياً.

ثانياً : نسق العنف المعنوي

1- نسق العنف اللفظي :

إنّ العنف اللفظي واحد من أنواع التمثلات العنيفة وأقواها تأثيراً في نفسية المتلقي عبر فاعلية التعدي الشفوي أو الحركي في صورة شتم ، أو سب ، أو تجريح وإهانة ، وبهذا يكون تأثيره أكثر شدة على الإنسان وتحتاج الضحية عندئذ إلى وقت طويل للتخلص منه^(xxi) ، ومن هنا شغل نسق العنف اللفظي حيزاً في فضاء الرواية : بسبب طبيعة الواقع الاجتماعي تجاه الأنثى ، وهذا ما صرح به السارد في هذا المشهد " فليّم قلت ما قلته لبشري ؟

- لم أخبرها بغير الحقيقة

- وما شأنك أنت ؟

- هذا ما يجب أن يفعله كل إنسان يحترم نفسه

فقال بصوت شوهه الغضب :

- ولكنك إنسانة غير محترمة

(اذن هاذ ناوي على شر) .. امتدت يدها بلا وعي إلى حقيبتها المتدلية

من كتفها .. قالت باستخفاف مصطنع :

- لا يهمني أن تقولها أنت "^(xxii)

يبثّ هذا النص عنفاً لفظياً كبيراً رسمه السارد في فضاء الرواية ، ويحاول من خلاله تجسيد المعاناة الأنثوية تجاه المركز الذكوري ، هذا المركز الذي جاء بمفردات لغوية ترسم صورة سردية للعنف اللفظي من خلال خطابه " فقال بصوت شوهه الغضب : ولكنك إنسانة غير محترمة " ، ومن هنا فالشخصية الأنثوية " سفانة " قد عايشت ذلك الواقع المحفوف بالعنف الذي يعيشه العنصر الأنثوي بشكل عام ، ولهذا أراد فضاء السرد أن ينقل لنا حجم المعاناة الأنثوية من تلك الأنظمة الاجتماعية الذكورية تجاهها عبر المفردات اللفظية التي تقسو عليها ، فالألفاظ هنا ليست مجرد وسائل نقل ، بل أشياء مطلوبة لذواتها وكيانات مادية مستقلة بنفسها ، وعلى هذا تتحول الكلمات من دوال إلى مدلولات ، وبهذا التشكيل اللفظي استطاع السارد أن يحدد نسق العنف لتجربته السردية في صورة تكشف الدلالة المضمرّة خلف الأنساق الثقافية المختبئة تحت عيائه .

2- نسق العنف النفسي :

يترجم العنف النفسي سلوكاً يهدف إلى تعمد إيذاء الطرف الآخر أو إيقاع الضرر به ، ومخالفة العرف في التعامل بين الناس ، وقد يسبب صدمات نفسية من القلق والتوتر ، فضلاً عن القذف والتشهير وتشويه السمعة والإفادات الكاذبة المتعمدة بحق الآخرين^(xxiii) ، ويبدو العنف النفسي في أوج صورته السردية في فضاء هذه الرواية حافلاً بمعاناة

انتهاكية عنفوية يستخدمها المركز الذكوري عبر فاعلية القوة مما تشعره الأنثى بالدونية ، ومن خلال قراءتنا الثقافية لفضاء النص نلاحظ أن السارد استحضّر النسق الجنسي من خلال رسمه لصورة العنف ، فجاءت الصورة السردية صادقة لحال الأنثى التي لا تجد إلا أن تبوح بمعاناتها وصراعاتها تجاه الأنساق " - أخبريني ياسفانة

- ماذا يا دكتور ؟

- ما السر في تعدد المهن التي عملت بها ؟

فوجئت بسؤاله إلى حد أنها لم تجد في بالها جواباً لسؤاله .. (أي وين وهاذه وين ؟ !) .. فضلت الصمت وهي تتطلع إليه .. لاحظ هو ذلك ، فقال موضعاً :

- واحد وثلاثون وظيفة .. أو عملاً ، كثير جداً بالنسبة إلى عمرك !

فقالته هذه المرة بلا تردد :

- أتقصد أنك لم تصدقني ؟

تسرب الاحمرار إلى وجهه حين سمع ذلك فقال فوراً :

- طبعاً لم أقصد ذلك ، ولكن العدد يبقى كثيراً !

فضحكت محرجة وقالت :

- حظي

- أعرف .. ولكن ما هي الأسباب ؟

فشعرت بالاستغراب لسؤاله ، ولذلك قالت بتوكيز :

- لقد أخبرتكم بالسبب الرئيس

- وهو ؟

- التحرش

- أها .. صدقت ، ولكن ما هي الأسباب الأخرى ؟

- وهل يجب أن تكون هناك أسباب أخرى ؟

- لا أعرف .. أنت أجيبيني

- لا جواب آخر عندي .. أتعتقد بأن التحرش لا يصلح لأن يكون سبباً ؟

- ولكنه مجرد تحرش !

- هو تحرش جنسي يا دكتور .. هل تتصور بأن ذلك أمر طبيعي "^(xix)

من خلال هذا النص السردية نرى أن السارد عمل بفاعلية عصا السرد إلى كشف تلك الأنساق الثقافية التي تشكل عنصر العنف أمام الأنثى ، ومن هنا يتبين لنا أنّ فضاء المشهد يظهر عنفاً جنسياً عبر تجسيد جملة " لقد أخبرتكم بالسبب الرئيس ... أتعتقد بأن التحرش لا يصلح لأن يكون سبباً ؟ " ، وكل هذه المفردات تترجم لنا بان " المرأة في المجتمعات العربية تبحث عن ذاتها وترفض التعنيف وكل ما يحد من حريتها وإثبات كيانها سواء في المحيط الأسري أو في المحيط المجتمعي "^(xx) ، ولهذا اتجه هذا المقطع المشهدي بوصفه وسيلة للتعبير عن الدلالة المضمرّة للأنثى وواقعها المعاش " ما السر في تعدد المهن التي عملت بها " تحت هيمنة النظام الذكوري ، فضلاً عن تفكيك ذلك النظام الذي قام بتعنيف الأنثى وعمل على جعلها شيئاً لا يصلح الا للإتصال البيولوجي ، وبهذا يحاول السارد أن يحفر في

لدعم النفس وهذا من شأنه أن يقود إلى الحرمان المادي ، وبذلك يتجلى الفقر بأنه عدم القدرة على تحقيق مستوى معين من المعيشة المادية ، وهو يمثل الحد الأدنى المعقول والمقبول في مجتمع ما من المجتمعات في مدة زمنية ومن ثم يخلق حالة من الإحباط الذاتي يمنع الفقير من إرضاء حاجاته ويمنحه اليأس^(xxvi) ، ولهذا نجد السارد يصف معاناة الشخصية الأنثوية " سفانة " تجاه نسق الفقر في أثناء حوارها مع الشخصية الذكورية " الدكتور فارس " وهذا ما نلاحظه لدى السارد في قوله " قولي لي متى بدأت بالبحث عن العمل ؟

- منذ الثامنة عشر.. أي حال انتهائي من دراستي الإعدادية

- وعملت خلال دراستك الجامعية ؟

فرقت عينها مفصحتين عن أنه قد لامس وترأ حساساً في نفسها .. قالت :

- أنا لم أنه دراستي الجامعية .. اكتفيت بالإعدادية

- ولكن لماذا ؟!

- شرح ذلك يطول يا صديقي ، أنا فقط لم أنه دراستي الجامعية

- حسناً فضلت العمل عليها ؟

- لم أفضل

- إذا ؟

- كنت مضطرة

- ولم مضطرة ؟

- لكي أعيش

حينها فقط ، عرف أنها إنما تتحدث عن الفقر وهو مالم يخطر بباله برغم محاولاتها العديدة لإفهامه^(xxvii).

تتجلى في هذا النص المعاناة الذاتية للشخصية الأنثوية " سفانة " تجاه نسق الفقر ، هذا النسق الذي أرغمها على أن تبحث عن العمل بدلاً من إكمال دراستها ، فجاء المشهد السردى صورة صادقة لأنثى تعاني الفقر ، ومن هنا ترجمت هذه المعاناة في الرواية كمحاولة لاستشفاف الأنساق المعلقة في بنية النص التي تعبر عن التوتر والاضطراب الذاتي المعلن للأنثى التي تتصارع أمام الواقع الاجتماعي بجميع أنساقه الثقافية ، ولهذا تقول الأنثى : " كنت مضطرة ، ولم مضطرة ؟ ، لكي أعيش " لذلك تعدُّ هذه اللقطة المشهدية التي تحمل بين معانها وظروفها أيقونة الحس الذاتي في أعماق صورها النفسية ، وهذا يعكس الرواية ظاهرة اجتماعية في أنساقها الثقافية ، أي تفصح عن حقيقة المشاعر الداخلية للذات الأنثوية تجاه الفقر الذي قد لا يكون ظاهرة اجتماعية بسيطة ، لاسيما أن التوتر والحيرة كانت تستبد بهما الأنثى كلما زارتها لوحة الاستذكار " فرقت عينها مفصحتين عن أنه قد لامس وترأ حساساً في نفسها .. قالت : ... شرح ذلك يطول يا صديقي وهكذا تؤدي هذه الرواية دوراً كبيراً في استحضار الشخصية الأنثوية في فضاء السرد بمعانها الذاتية ، لأن " الرواية أكثر الأجناس التصاقاً بالشخصية "^(xxviii) واستجابة لتحولاتها وفضاءاتها وقيمتها التعبيرية.

نفسية أنثوية تجاه هذا النسق ، ولعلنا نستطيع أن نلمح تلك التوترات النفسية في هذا المشهد السردى " فقالت فوراً :

- من المريض ؟

- زوجتي

- ما اسمها ؟

- بشرى السيل

شعرت وكأن تياراً كهربائياً يسري في جسدها حين سمعت الاسم ..) عزه ، ولج هاي هيه مثل ما قلت ، هاي شلون ورطه) ... بشرى التي حدثت عنها أكثر من مرة .. بشرى صديقة عماد التي تحبه ، وهو يحرص طوال الوقت على أن يحدث أصدقاءه عنها ويخبرهم بتفاصيل ما يجري بينهما ، مالتاً أسماعهم بأنها متزوجة ، وجميلة .. حتى أنا سمعت منه عنها ، ورأيت صورها ، لأنه لم يتوان عن عرضها عليّ برغم أنني لم اطلب منه ذلك .. لا طبعاً لا يحبها ، هو يفعل ذلك فقط ليفاخر بفتوحاته .. ما بك اليوم ؟ عماد التافه الذي كان أول من صدق نيمر حين افترى تلك القرية عليّ .

أتمت تنظيم البطالة بيد تكاد ترتجف من التوتر... لج فضوله شلون شسوي ؟ كيف أتصرف وكان الأمر لا يعني ، هي سمعة امرأة على الملح...أرجوك ساعديني في اتخاذ القرار"^(xxiv).

إنَّ السارد في فضاء هذا المشهد السردى يظهر العنف النفسي من خلال الصورة السردية التي تضفي خطر العنصر الذكوري تجاه العنصر الأنثوي ، وهذا مما جعل السارد يستعمل جملاً سردية تعبر عن المعاناة النفسية للأنثى إزاء نفسها وعالمها المحيط بها " تكاد ترتجف من التوتر ... لج فضوله شلون شسوي " ، فاللقطة المشهدية هنا تنقل لنا معاناة المرأة ومأساها من تلك الإيذات كالتشهير والتشويه " يحدث أصدقاءه عنها ويخبرهم بتفاصيل ما يجري بينهما ... حتى أنا سمعت منه عنها ، ورأيت صورها " ، فالسارد هنا قد عايش الواقع الاجتماعي وشدّة الظروف وقسوتها ، مما أدى إلى إحساس السارد بمعاناة العنصر الأنثوي ، فكان صوته المعبر عن تلك الهواجس والألام خلف الأنساق الثقافية للمرأة ، وهكذا فإن السارد نقل للمتلقي فاعلية العنف ، ثم وقف ليسجل في فضاء روايته كل ما يراه من الأنساق بملاحمها ومشاهدها المخفية عبر ذاكرته السردية القادرة على اختزال المشاهد ، وبذلك تخلق ذاكرته قوة التخيل لديه صوراً جديدة ناطقة توصف الواقع المزري تجاه الأنثى وما أفرزته الأنساق المؤسساتية الاجتماعية المحيطة بها لاسيما أن الرواية في مجتمعاتنا " هي صورة عن الحياة الواقعية وعادات الناس وعن العصر الذي كتبت فيه "^(xxv).

المبحث الثالث : نسق الفقر.

لا ريب أن الفقر له الأثر العميق في تكوين نفسية الإنسان وفي رسم خطوط حياته واتجاهاته : لأن الفقر إحدى الأزمت الاجتماعية التي يعيشها الإنسان ، إذ يترك مجموعة أفرزات معنوية كبيرة منها الشعور الدائم بفقدان الإحساس بالأمان والتهديد بالفناء ، بمعنى ان الفقر هو حالة الافتقار للممتلكات المادية ، امتلاك القليل أو عدم وجود إمكانية

تشوبه مرارة كبيرة ووحدة ناجمة عن الانفصال التباعدي إلى درجة النخلي عن شرفها " ولكن أفسى ما عرفته حينها ، هو أنهن أخذني معهن لأن (بيه خوش خيزه) " ، فمع فقدان الأنثى لأهم ما تملكه فإنها تكتسب ذاتاً زائفة وتستحيل إلى إنسان مغترب ، وفي دائرة القراءة الثقافية نجد السارد يتخذ من البغاء دلالات مضمرة يمرر من خلالها صورة الواقع وتمظهراتها التي ولدت نسق الفقر، فضلاً عن هذا نشاهد ان السارد يعبر بعبارة " هل تصدقين أنهم لا يعرفون ما تفعله أخواتهم طوال اليوم بعيداً عن البيت " ، عن نسق مضمرة يؤكد على الواقع الزائف ، وكذلك محاولته لكشف الدلالة المضمرة لستار الواقع الاجتماعي المتسلط ليتسنى للقارئ معرفة الأنساق التي تعاني منها الأنثى كالفقر وغيره .

وفي ظل القراءة الثقافية نجد أن نسق الفقراكان باعثاً صراعاً ذاتياً عند الشخصية الأنثوية " سفانة " التي عانت أمام الجوع والحرمان فأذكت مشاعر اللوعة والحسرة لديها حين لم تجد أمامها بديلاً إلا أن تصرح بأهاتها عبر فاعلية الحوار في هذه اللقطة المشهدية : " كيف أحدثه عن حرمانني من الخصوصية ؟ .. كيف سأفهمه أنني فتاة لا خصوصية لها بسبب ظروفها العينية ؟ .. أحدثه عن الليالي التي كنا لا نستطيع النوم فيها لأن شعورنا بالجوع يبعد الكرى عن عيوننا ؟ .. أم عن الاحتفاظ بلقمة كسرة الخبز التي يوزعونها علينا كعشاء أو غداء .. أنسيت كيف كنا نظل نلوك بها حتى تكتسب طعماً حلواً في النهاية قبل أن تموع في أفواهنا ؟ ! .. أم تريدان أن أحدثه عن بقايا فتاحة ناهدة التي كدت أموت كمدماً وأنا أراقبها تأكلها حتى ألقطت ببقاياها على الأرض وابتعدت ، فسارعت إلى التقاطها لأغسلها وأكلها .. لا لن أستطيع أن أحدثه عن الذل الذي أشعر به كلما تذكرتها ... هل أخبره بأنني أرفض أن يوصلني إلى البيت خشية عليه ، لأنني لا أعرف وقع رؤية سيارته الحديثة في تلك المنطقة البائسة .. ثم هل تصورين أنني أستطيع أن أخبره بأن أملنا الوحيد في أن نأكل وجبة جيدة هي الدعوات ، ولذلك كنا نقبل أية دعوة لنا بغض النظر عن صاحبها لأنه ليس مهماً ، المهم هو الأكل"^(xxx)

أراد السارد بهذه الصورة السردية للأنثى المستسلمة لهيمنة الفقر أن يحسس بني جنسه بالمعاناة التي تعيشها الأنثى ، فوقوف الأنثى في أثناء حوارها على مواقع الذات الماضوية ومحاولة تغيير واقعها لن يكون إلا بالتفرغ لتلك الذكريات المؤلمة التي ترسبت في مخيلتها ، لذلك حاول السارد ان يترجم عبر نسق الفقر الدلالة المضمرة المتمثلة بالصوت الأنثوي " سفانة " لذلك الواقع الاجتماعي الذي جعل الأنثى تعيش توجعاً وتألماً ذاتياً من الحياة بسبب الفقر وإفرازاته ، فتعاني مرارة اليأس وعبثية المسعى لتزايد شعورها بحالة الحرمان المعيشي وتداعياته ، كما إن الإحساس باليأس والذل تجاه الواقع يظهر بقوة في الذات الأنثوية عبر مفردات سردية " أم تريدان أن أحدثه عن بقايا فتاحة ناهدة التي كدت أموت كمدماً وأنا أراقبها تأكلها حتى ألقطت ببقاياها على الأرض وابتعدت فسارعت إلى التقاطها لأغسلها وأكلها .. لا لن أستطيع أن أحدثه عن الذل الذي أشعر به كلما تذكرتها " ، تدل على مضمرات

فقد كان نسق الفقر المتمثل بالحاجة والعوز وراء معاناة الشخصية الأنثوية " سفانة " فجاء حوارها مع صديقها " الدكتور فارس " تجسدياً لواقعها الذي تعاني منه ، وجرّاء ذلك فالفقر عندها لم يكن فقراً طبيعياً وإنما فقر قاس يشكّل مشكلة أساسية أمامها وهذا ما صرحت به الرواية ، وكانت آثاره أشد إمعاناً في القوة ، ولهذا نجد السارد يصف في فضاء روايته تلك المعاناة من خلال الرؤية الأنثوية لنسق الفقر ويقول : " والآن أخبرني

- ماذا ؟

- ماهي مشكلتك بالضبط ؟

- لا مشكلة عندي غير الفقر

فعاد حينها إلى الضحك ، وقال :

- فما تريد أكثر ؟ .. أتريدان أن تضيفي إلى الفقر ، السرطان مثلاً ؟

لم تعلق هي هذا المرة ، بل اكتفت بابتسامة بدت له رقيقة جداً ، قال :

- حقيقة أنا أسف يا سفانة

كادت تربت على كفه الملقية أمامها على المنضدة ، ولكنها أحجمت

وقالت :

- أنت طيب جداً يا دكتور فارس .. كل الشكر لك"^(xxx)

حاول السارد هنا أن يعبر عن سطوة الفقر تجاه الشخصية الأنثوية " سفانة " التي تعاني منه نتيجة الواقع الاجتماعي ، ولهذا وجد السارد في نسق الفقر تعبيراً عن واقع الحال الأنثوي وهذا ما صرحت به الأنثى في أثناء حوارها بمفردات لفظية " لا مشكلة عندي غير الفقر" تدل على قوة هيمنة نسق الفقر تجاهها ، ولو تأملنا فضاء المشهد من حيث الدلالات المضمرة لوجدنا أن تسليط السارد الضوء على الإفرازات الاجتماعية كالفقر يكشف لنا عن عمق تأثره بها : لأنه يرى منها الآلام والمعاناة ، ومن هنا فإن هذا النص رسم صورة سردية تعبر عن ذلك الواقع المزري الذي ترجمه السارد من معاناة فردية أنثوية إلى معاناة جماعية مشاركة في الهموم ، لذلك مرر السارد نسقاً مضمراً أراد به ليس الواقع الاجتماعي حسب ، وإنما الواقع الاقتصادي أيضاً وما يعاني المجتمع منه على نحو عام والأنثى على نحو خاص ، وهذا ما صرح به في قوله : " هل تصدقين أنهم لا يعرفون ما تفعله أخواتهم طوال اليوم بعيداً عن البيت ؟ لا ، طبعاً لا أريدهم أن يذبحوهن ، فأنا أحين لأنهن شقيقاتي ، ولكنني أتحدث عن هذا الشرف المثلوم الذي يدعونه .. هل نسيت يوم أخذوني معهن ذات يوم ؟ .. في ذلك اليوم رأيت منهن عجبا ، فقد نزعن حجاباتهن فور ابتعادنا عن المنطقة ، وطلبن مني أن أنزع حجابي أنا الأخرى ، فرفضت لأنني كنت أستجبر به ليحميني .. كنت مسكينة يا فضيلة .. مسكينة حتى اكتشفت الحقيقة الرهيبة .. أه يا فضيلة ، حتى الآن لا أجرؤ على التصريح بما اكتشفت ، ولكن أفسى ما عرفته حينها ، هو أنهن أخذني معهن لأن (بيه خوش خيزه) .. نعم ، فقد كنت الفتاة الشبيهة ذات السبعة عشر عاماً ، وهي طبعاً التي يدفع من أجلها أعلى الأثمان "^(xxx)

يبدو أن نسق الفقر شكل صراعاً نفسياً واجتماعياً للأنثى عندما أصبح العوز هو الحاجة الملحة لها ، مما أسفر عن استغراقها في حزن

يجسد السارد أنساقاً مضمرة في طياتها تشير إلى البحث عن السعادة التي افتقدتها الأنثى أما بحكم سلطة المجتمع أو الواقع الذي جعل الأنثى تطمح إليه ، وهذا ما صرحت به " سفانة " في حوارها " فأنا بأشد الحاجة إليها ... ألا تريدان السعادة لحبيبتيك " ، فهذا الإلحاح الإثنوي ماهو الا ترجمة لتلك الصراعات التي عانت الأنثى أمامها ، لذلك جاءت الصورة السردية لتخرج الذات المضمرة من خلال هذا المشهد الذي يفصح عن حضور ذاتي لصوت أنثوي تترجم مشاعرها المختلفة تجاه لذة السعادة التي تُعدُّ " حالة وجدانية متوسطة بين الإحساس بالارتياح الغامض أو عدمه ، وبين الإحساس بالألم " (xxxv) .

ويقدم لنا السارد في فضاء روايته صوراً سردية كثيرة مشبعة بالذات الأنثوية لنسق الحب تجاه الأنساق الثقافية في صراعها ، انطلاقاً من تجرية الواقع المعيشي الذي فرضه واقعهم مما خلف معاناة وآلاماً عند الشخصية الأنثوية " سفانة " جسدها السارد في قوله : " (شلون بيه يا فضيله ؟) أريد أن أعيش قصة حب قبل أن أموت .. لا ، ليس أن أحب فقط .. أريد أن أحبُّ كما أحبُّ ، فهل ما أطلبه كثير ؟ .. أنا مثلك ، لم أنل طوال حياتي ولو جزءاً ضئيلاً مما أريد .. لا أعرف ، لعل ما أريده كثير إن كان مادياً ، ولكن حظ من المال ، ومن لم يكتب له ... أتعرفين كم عدد الرجال في هذه الدنيا ؟ .. طبعاً كبير ، وكبير جداً ، حتى إن فاق عدد النساء فيها ، ولكنهم يبقون بالمليارات عدداً .. (يعني معقولة من كل هل مليارات ما يجيني أحد ؟ !) .. ألم أحم من الكثير في حياتي ؟ .. أليس من العدل أن تعوضني الدنيا حباً ؟ أقسم لك إنها لو فعلت لاعتبرتها لها إنصافاً " (xxxvi) .

في هذا الحوار السردية تشكو الأنثى " سفانة " لصديقتها " فضيلة " معاناتها تجاه نسق الحب ، ولهذا راح صوتها يتعالى باحثاً عن الحب من خلال تساؤلاتها " أريد أحبُّ كما أحبُّ ، فهل ما أطلبه كثير ؟ " ، التي أظاحت بالأنساق الثقافية المغلقة أمامها واخترقها ، ويبدو أن استعمال السارد لهذه المفردات اللفظية لشخصية " سفانة " ما هو إلا طريق للتعبير عن المضمرة لعالم الأنثى ، والكشف عن معاناتها الذاتية في دائرة السلطة المؤسساتية لنظام المجتمع ، وهذا فقد جسدت الصورة السردية الآلام والحسرات المضمرة للأنثى ، وعُبرت عن حقيقتها وجوهريتها المدفونة تحت تمركزات السلطة ، فضلاً عن هذا أن إصرار الأنثى على ممارسة الحب والحاحها يكشف للمتلقي المشاعر الذاتية المتوترة التي تشكلت لديها ، وهذا مما جعل السارد يصور الأنثى في حالة من الإحباط النفسي ، غاية منه أن يكشف ما هو مضمرة تجاه الأنثى كونها أداة طبيعة بيد السلطة الأيديولوجية ، ومن ثم فإن عدم إشباع الذات لما تريده الأنثى يؤدي إلى الصراع الداخلي ، وهذا ما اثبتته في أثناء حوارها في قولها على لسان السارد " أتعرفين كم عدد الرجال في هذه الدنيا ؟ ... يعني معقولة من كل هل مليارات ما يجيني أحد ؟ ! " ، وهنا لو تأملنا الدلالة المضمرة للألفاظ الآتية " معقولة ما يجيني أحد " ، لوجدنا الصراع الداخلي الذي تعيشه الشخصية الأنثوية " سفانة " بكثافة عالية تجاه نسق الحب ، وهذا تمكن السارد بانزياحاته السردية من تعرية الشعور ، وهو يدافع قارئه إلى التماهي والامتزاج مع حقيقة

كثيرة تكشف عن واقع استلاب الحياة الاجتماعية من قبل السلطة التي لا تستطيع أن توازن بين طبقات المجتمع ، وهكذا شارك السارد الأوجاع الداخلية للأنثى عبر نقل آهاتها في فضاء خطابه السردية ، هذا الفضاء الذي يجده السارد متنفساً لأوجاعه الداخلية التي يعيشها على نحو عميق ، فيصوغها في شكل خطاب يحاور من خلالها العالم الخارجي ويرفه بها عن كل مكبوتات للمجتمع ، فضلاً عن كل ذلك نجد أن الأهات الأنثوية التي جاء بها السارد تجاه المجتمع ما هي إلا محاولة لنقل المرأة " من موقع المفعول بها ، إلى موقع الفاعلة " (xxxvii) ، ليس فقط على مستوى هيمنة النظام الاجتماعي تجاهها ، لكن عن طريق محاولة لتغيير تلك الأنماط الثقافية الثابتة المتوارثة وفرض النمط الثقافي النسوي.

المبحث الرابع : نسق الحب .

يعدُّ نسق الحب واحداً من الأنساق التي تتجلى فيها المعالم الوجدانية ، فهو ظاهرة إنسانية تعبر عن العاطفة الذاتية لكونه الإحساس الأسمى ، لذلك " فالحب هو بهجة الدنيا لدى ذلك الموجود البشري الذي لا يملك سوى أن يحيا مع الآخرين " (xxxviii) ، ومن هنا تظهر فاعلية الحب في الكثير من الأنواع السردية على نحو عام والرواية على نحو خاص ، ولهذا يتجلى نسق الحب واضحاً في مشاهد هذه الرواية إذ يجد القارئ صدى له ، لذلك يسرد لنا السارد معاناة الأنثى وصراعاها تجاه هذا النسق الذي أنتج صرخة أنثوية مؤلمة باحثة عن سعادة الحب ، وهذا ما نلاحظه عند الشخصية الأنثوية " سفانة " في حوارها مع صديقتها " فضيلة " حول المحب " الدكتور فارس " كما في هذا المقطع السردية " كم أشتاق يا حبيبي .. لم أكن أشعر بالوقت حين أكون معك ، فليتك معي الآن وأنا لا أعرف ما الذي أفعله بنفسي .. أنا حتى لا أمتلك كتاباً أمضي الوقت بقراءته ، ولذلك لم يبق أمامنا ، أنا وأنت غير أن ناقش موضوع فارس .. فارس حبيبي يا متخلفة .. لا ، أرجوك يا فضيلة ، كوني منصفة .. أنا أعرف بأن هناك هامشاً للخطأ ، وللحظ ، ولكن سانديني في قراري أرجوك .. دعيني أخص مغامرتي الخاصة ، فأنا بأشد الحاجة إليها .. نعم ، أعرف بأنني سأتألم إن كانت حساباتي خاطئة ، وطبعاً أعرف بأنك خائفة عليّ ، ولكن الأمر يستحق تماماً إن أتت النتائج إيجابية .. ألا تريدان السعادة لحبيبتيك (سفسف) ؟ ... بل سأحاول من خلال وجوده في حياتي أن أغيرها ، فهي تكاد تخنقني .. طبعاً لن أمتعض إن أحبني وأراد أن يتزوجني ، بل هذا غاية المنى عندي ، ولكن إن لم يفكر بالزواج ، فإن أية علاقة عاطفية تربطني به سيوصلني إلى قمم السعادة " (xxxix) .

الصورة السردية في هذا المشهد تعبر عن نسق الحب عبر فاعلية العاطفة التي استولت على وجدان الشخصية الأنثوية " سفانة " واستحوذت على تفكيرها ، فبدا هائماً به قلبها لا يرويه ولا يشفيه إلا ممارسة الحب ، وقد أحدث هذا الحب في ذاتها أمالاً نفسية ، ولهذا ذهبت تضي عليه مظاهر السعادة والجمال " فإن أية علاقة عاطفية تربطني به ستوصلني إلى قمم السعادة " ، وعبر هذه المفردات السردية

سمتها بـ " اللعينة " في حوارها " أشعر برغبة عنيفة في البكاء ، ولكنني لن أبكي ... دعينا نتم الآن ، عسى أن ننسى هذه الدنيا للعينه قليلاً " ، وهذا فإن السارد يحاول عبر هذه الصورة السردية ان ينقل لنا تلك الأهات الأثوية ليحدث الاستجابة عند المتلقي لاستقبال حدة المعاناة التي جعلت الأثي تعبر عن كل ما يحتبس في صدرها من الأحاسيس .

وقد رسم لنا السارد في فضاء الرواية صوراً سردية كثيرة لنسق الحب مشبعة بالصراع تجاه الشخصية الأثوية " سفانة " انطلاقاً من الواقع الذي فرض مجموعة من الأنساق الثقافية المهيمنة ، لذلك فإن الصورة السردية التي يعبرها السارد عن معاناة الأثي وأحاسيسها تجاه الحب لم تكن ومضات خافتة مرّت بها الأثي ، بل كانت تمثل ذلك الشعور الحقيقي في التعايش مع افرازات الحب ، لاسيّما أن الأثي تتألم على نفسها بأصدق معاني التعبير عن حياها للشخصية الذكورية " دكتور فارس " والتي أخذت تنادي بأعلى صوتها ، تلك التي تجلت فيها المعاناة الذاتية " أنا يا فضيلة ، الفتاة الأكثر تعطشاً للحب الآن .. أصبح هذا حالي منذ رأيته ، فإما أن تفهني ذلك ، أو تسكتي ... قولي ما تشائين ، فقط لا تدعي وجهك الحلو (يغندب) .

يا لك من معاقه ! .. أحاول أن أداري مشاعرك ، فتستغليني ... أه يا فضيلة ، لو رأيت ابتسامته ، لفهمتني .. هو رجل أباريحي .. رجل آخر تماماً ، ويستحق كل الحب .. وأكثر .. هو رجل يستحق كل الشعر الذي في الدنيا ، بل جعلني أشعر بالشعر وكأنه ألحان تضبطها نبضات قلبي على إيقاع اسمه .. منذ رأيته ، أصبح الشعر عندي هو أن أدوب به كلمات .. لا ، لا بأس إن لم يحبني ، فكل ما أريد هو أن أغمره بعذوبة عشقي له ^(xxxix) .

إن تأمل هذا النص يكشف لنا عن المواجه الذاتية للأثي " سفانة " تجاه نسق الحب ، ونفهم من المشهد السردية أن الحب شكل مصدر معاناة وحرمان للأثي ، ومصدراً لإرهاقاتها النفسية ، وهذا ما نستشفه في أثناء حوارها مع صديقها " فضيلة " عندما لم تجد بديلاً امام هيمنة الحب فاسردت مما في داخلها من مشاعر " أنا يا فضيلة ، الفتاة الأكثر تعطشاً للحب الآن " ، لذلك بدأت الأثي تصف في حوارها المحب بمفردات عاطفية طغى عليها الصراع الذاتي " لو رأيت ابتسامته ، رجل يستحق كل الشعر الذي في الدنيا ، كانه الحان " ، ومن هنا لو قمنا بحفر المشهد والبحث في الدلالات المضمره وفقاً لمرتكزات النقد الثقافي لوجدنا ان كل هذه المفردات تشير في إضمارها إلى الكبت الذي تعاني منه الأثي بسبب المهيمنات الاجتماعية لواقع تحكمه مجموعة من الأنساق الثقافية التي أصبحت أنساقاً مؤسساتية وريثة للنظام الاجتماعي ، ومما يؤكد هذا الدكتور سامي الدروبي عندما قال عن نسق الحب بأنه : " يستمد لونه من البيئة الطباعية التي يستجم فيها ^(xl) ، ولهذا حاول السارد أن يصور في هذه اللقطة المشهدية البعد النفسي المتوتر لصراع الذات الأثوية مع الآخر باحثاً عن غمرة العاطفة " فكل ما أريد هو أن أغمره بعذوبة عشقي له " .

المنجاة الذاتية للشخصية الأثوية : لأن " الحب هو قوة فعالة في الإنسان ، قوة تقتحم الجدران ... ، إن الحب يجعله يتغلب على الشعور بالعزلة ... إن الأثي يصبحان واحداً ومع هذا يظلان اثنين " ^(xxxvii) .

ومن هنا وفق السارد بالتغلغل داخل الفضاء الأثوي لينقل لنا مشاهد أخرى لا تقل عن أقرانها في تصوير المعاناة الأثوية تجاه نسق الحب وكشف مضمراته ، لاسيّما أن السارد سرد تلك المعاناة الوجدانية بصورة سردية تعنى بالدقائق والتفصيلات للذات الأثوية كما في قوله : " سأحدثك طبعاً ، ولكن حديث الحب طويل .. طويل جداً .. لا ، لا ، سأحدثك طبعاً ويومياً (شعندي غيرج ؟) .. فقط أردت إفيامك بأن الحب لن تفهيه حقه كلمات معدودات ... فلتر .. اسمعي ، أن نحب فهذا يعني أن نعشق الروح ، الروح فقط ، وبقيّة الأشياء مجرد تفاصيل .. لا ، طبعاً مهمة ، ولعلمك أنك ستزين كل تلك التفاصيل رائعة حين تعشقين روحه .. نعم ، فهكذا هو الحب ... فالحب أحواله غريبة تماماً ، حتى أننا يمكن أن نسمع العصافير تزفّق باسم الحبيب أحياناً .. صدقيني هذا يحدث .. حين أحب ، فلن يهمني أن لا يكون حبيبي أجمل رجل في العالم ، فحسبي ، أن يكون هو كعبة عيني ، بل قد لا ينتبه إليه أحد ، ولكنه حين يقبل عليّ ، فجأة ، يتسارع نبضي وترتفع حرارتي وأشعر بدوار لذيذ ...

أتعرفين ؟ صاحبه بلا قيد أو شرط ، ومهما فعل ، سأمنحه الغفران ، فقط ليبقى حبيبي فذلك هو أقصى مناي .. طبعاً سأغفر له ، فأحلى الغفران هو ما يمنح ، لا لأن الدين أو الأخلاق تفرضه ، بل لأننا نريد أن نمنحه ، وخاصة لأحبتنا .. حسناً ، لا تغفري له أنت ، أنا سأفعل ، ودائماً .. ثم أخبرني ، أين هو حبيبك هذا ؟ جديده أولاً ، ثم قرري إن كنت تريدين أن تغفري له أو لا .. أه فضولة ! لم نعذب أنفسنا الآن ، فمن الواضح أن لا حبيب عندي ، ولا يبدو في الأفق أنه سيوجد قريباً . أشعر برغبة عنيفة في البكاء ، ولكنني لن أبكي ، لأثي إن فعلت ، فلن أتوقف حتى الصباح .. دعينا نتم الآن ، عسى أن ننسى هذه الدنيا للعينه قليلاً ^(xxxviii) .

يبدو نسق الحب واضحاً في المشهد السردية من خلال الشخصية الأثوية " سفانة " التي تسرد حكايتها مع الحب ، وعبر هذا السرد الحكائي تحاول الأثي التعبير عن واقعها الشخصي تجاه نسق الحب ، وما يدور فيه من عواطف ذاتية ولواعج نفسية مكبوتة لتكشف لنا علانية عن هم جسدي وروحي غائر وخفي يصدمنا بالمكاشفات المباشرة لفاعلية الحب " صاحبه بلا قيد أو شرط ، ومهما فعل ، سأمنحه الغفران " ، فضلاً عن هذا نجد كل هذه الترجمات الذاتية امام الحب للشخصية الأثوية " سفانة " إيهاماً يقودها عبر مخيلات ظلت تلاحقها كحلم مؤجل ورغبة دفينه غير محققة " أين هو حبيبك هذا ؟ ... أه فضولة ... فمن الواضح أن لا حبيب عندي ، ولا يبدو في الأفق أنه سيوجد قريباً " ، إن هذا التعطش الأثوي للحب يشير في دلالاتها المضمره إلى حجم الصراع الذي تعانیه الأثي أمام مدركات الحياة ومفرداتها بجميع إفرازاتها التي أصبحت بمثابة حواجز مانعة للأثي والتي

الخاتمة :

(iv) السرد النسوي ، الثقافة الأبوية ، الهوية الأنثوية ، والجسد ، د . عبدالله إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2011م : 216 .

(v) الرواية : 185-186 .

(vi) ينظر : ثقافة الأفكار النمطية ، طارق الحجى ، مجلة المعلم ، 1 - 4 / 2008م : 3 .

(vii) مجلة النظام الأبوي وتأثيره على العائلة والمجتمع والسلطة ، إبراهيم الحيدري ، ع 4534 ، 2010م : 24 .

(viii) الرواية : 95-96 .

(ix) الأب والسلطة الذكورية في الرواية النسوية الجزائرية رواية " رجالي " لمليكة مقدم انموذجاً ، الطالبتين : بابوري زولخة ، وعزوق سليمة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة عبد الرحمان ميرة - بجاية ، الجزائر ، 2016م : 8 .

(x) ينظر : تغير السلطة الأبوية وأثره على تبادل الأدوار في الأسرة العراقية ، انتصار محمد جواد ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب - جامعة بغداد ، 2005 م : 11 . 12 .

(xi) الرواية : 240-241 .

(xii) مجلة النظام الأبوي وتأثيره على العائلة والمجتمع والسلطة : 26 .

(xiii) ينظر : تجليات العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة ، رواية " تميمون " لرشيد بوجدر انموذجاً ، رسالة ماجستير ، الطالبتين : كرناف منير ، وخنوش محند ، كلية الآداب واللغات ، جامعة عبد الرحمان ميرة - بجاية ، الجزائر ، 2016م : 6 .

(xiv) ينظر : العدوان والعنف في الأسرة ، مطاوع محمد بركات ، مجلة الاحرار ، ع795 ، 2000م : 21 .

(xv) العنف الأسري وأثره على مشكلة التأخر الدراسي ، هدى ســـــعيد عبطـــــة الغامـــــدي ، 2016م : 16 .
WWW.assakina.com Wp.content.

(xvi) الرواية : 102 .

(xvii) العنف في الشعر العراقي الحديث مظاهره وتجلياته ، صالح جابر محمد ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة ، كلية التربية ، 2012م : 123 .

(xviii) العنف الجنسي ضد المرأة في القانون الدولي إطلالة موجزة عن مكافحته طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، د . حامد سيد محمد حامد ، المركز القومي للإصدارات القانونية ، القاهرة ، ط1 ، 2016م : 55 .

(xix) الرواية : 130-131 .

بعد البحث في فضاء رواية " صوت خافت جداً لسعد سعيد " أفضت الدراسة إلى تسجيل جملة من الرؤى النقدية في أثناء تجولنا في المشاهد السردية للنص . وهي على النحو الآتي :

1- إنَّ تغيير الروائي للأدوار الأنثوية ومركزياتها في فضاء الرواية ما هو إلا انعكاس وترجمة المضمرة من صوتها المكبوت وتفجير كوامنها وهي تعيش معانها ضمن دائرة الأنساق الثقافية .

2- ترصد الرواية عالمي المرأة والأسرة عبر الصورة الموروثة للمؤسسة المجتمعية في سبيل خلق فضاء نقدي اشبه بثورة على كل ماهو سائد تجاه الأنثى في المجتمع الأبوي والبحث عن قيم أنثوية جديدة .

3- طغى على فضاء الرواية العنف بشقيه المادي والمعنوي على نحو جلي تجاه الأنثى ، ولاسيما العنف الأسري ، والانتهاك الذاتي والجسدي اللذين يستخدمهما المركز الذكوري تجاه الآخر ، وهذا الطغيان جعل الكاتب يغلب تقنية الحوار على غيرها في المتن بغية تلاؤمها مع جنوحه السردى لإبراز وجهة نظر الذات الأنثوية في معالمها المستتلة .

4- جعل الكاتب من هيمنة الأنساق الثقافية تجاه الأنثى مادة خصبة لتحريك عجلة السرد لفضاء الرواية ، كاشفاً من خلالها صورة المرأة العراقية عبر أنبيها من البطش الذكوري ، والفقر ، وسلطة المجتمع ، واستلاب حقوقها مقارنة بالمركز الذكوري .

5- اهتم فضاء الرواية بالأنثى ومشكلاتها اهتماماً كبيراً في ضوء دائرة النظام الاجتماعي المهيمن بفعلية تفضلاته ، وهذا ما استدعى الكاتب أن يتحدث بلغة الأنثى عبر الشخصية الأنثوية الرئيسة (سفانة) ، نتيجة مشاركته لمعاناة الأنثى وإيصال ذاتها التي تعيش حالة من الانعدام والضياع والألم تجاه الأنساق الثقافية وصراعاتها .

6- تُعدُّ الرواية موضوع الدراسة من الروايات العراقية المعاصرة التي تكشف معاناة الأنثى وتطرحها امام القارئ وتحاول إعطاء حقوقها المسلوبة من سلطتي المجتمع والذكورة .

7- إنَّ نص الرواية هو محاولة لاختراق وفك سلطة النظام التي حددها المجتمع ، أي تعرية المعايير التي تؤسس القوة الأيديولوجية السلطوية تجاه الأنثى ولا سيَّما أن الكاتب يحايت الطرح الذي يعتمد الرؤية الانتقادية للواقع العراقي .

الهوامش

(i) ينظر : دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د . علي الوردي ، دار مكتبة دجلة والفرات ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2013م : 53 .

(ii) ينظر : ميشال فوكو - المعرفة والسلطة ، د . عبد العزيز العبادي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، 1994م : 43 .

(iii) صوت خافت جداً (رواية) ، سعد سعيد ، دار شهريار ، البصرة - العراق ، ط1 ، 2019م : 100 - 101 .

- (xx) تمثيلات العنف النسوي في روايات بدرية البشر هند والعسكر اختياراً ، أ . م . د . سهاد ساعد صاحب ، سياقات ، مج 3 ، ع 1 ، 2018م : 212.
- (xxi) ينظر : العنف في رواية " تاء الخجل " لفضيلة الفاروق ، دليلة بوليفة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خضير بسكرة ، الجزائر ، 2016م : 15 .
- (xxii) الرواية : 189 .
- (xxiii) ينظر الاضطرابات النفسية في الطفولة والمراهقة ، الاسباب ، التشخيص ، العلاج ، مكتبة القاهرة ، القاهرة ، ط1 ، 2003م : 50 .
- (xxiv) الرواية : 146 - 147.
- (xxv) نظرية الأدب ، رينيه ويليك ، أوستن وارين ، ترجمة : محي الدين صبحي ، مراجعة : حسام الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1987م : 225.
- (xxvi) ينظر : أصول علم النفس ، د . محمد شحاته ربيع ، دار المسيرة للنشر والطباعة ، عمان ، الاردن ، ط1 ، 2010م : 472.
- (xxvii) الرواية : 68-69.
- (xxviii) سرد الآخر ، صلاح صالح ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ، ط1 ، 2003م : 102.
- (xxix) الرواية : 72.
- (xxx) الرواية : 95.
- (xxxi) الرواية : 172.
- (xxxii) السرد النسوي العربي ، مقارنة في المفهوم والخطاب ، كرام زهور ، شركة النشر والتوزيع المدارس ، الدار البيضاء ، ط1 ، 2004م : 115.
- (xxxiii) مشكلة الحياة ، إبراهيم زكريا ، مكتبة مصر ، القاهرة ، (د . ط) ، 1971م : 24.
- (xxxiv) الرواية : 94.
- (xxxv) مبادئ علم النفس العام ، د . يوسف مراد ، دار المعارف ، مصر ، ط4 ، 1962م : 81.
- (xxxvi) الرواية : 39.
- (xxxvii) فن الحب بحث في طبيعة الحب وأشكاله ، إريك فروم ، ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد ، دار العودة ، بيروت ، (د . ط) ، 2000م : 28.
- (xxxviii) الرواية : 85-86.
- (xxxix) الرواية : 200-201.
- (xl) علم النفس والأدب ، د . سامي الدروبي ، منشورات جماعة علم النفس التكاملية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، (د . ت) : 110.